الباب الستون

فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب

قولهم فى التوبة

قال رويم: معنى التوبة أن يتوب من التوبة.

قيل: معناه قول رابعة: أستغفر الله العظيم من قلّة صدقى فى قولى أستغفر الله.

وسئل الحسن المغازلى عن التوبة: فقال: تسألنى عن توبة الإنابة، أو عن توبة الاستجابة؟.

فقال السائل: وما توبة الإنابة؟. فقال: أن تخاف من الله عزّ وجل من أجل قدرته عليك.

قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحى من الله لقربه منك.

وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كلّ خاطر يلمّ به سوى الله تعالى. ويستغفر الله منه. وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل:

وجودُك ذنبٌ لا يُقاس به ذنْب

قال ذو النون: توبة العوامّ عن الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم.

سئل أبو محمد سهل عن الرَّجل يتوب من الشىء، ويتركه، ثم يخطر ذلك الشىءُ بقلبه أو يراه، أو يسمع به فيجد حلاوته.

فقال: الحلاوة طبع البشرية، ولابدَّ من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى، وينكره بقلبه. ويُلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته.

قال: وإن غَفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم، وتعمل الحلاوة فى قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن فإنه لا يضرّه.

وهذا الذى قاله سهل كافٍ، بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته.

والعارف القوىّ الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن باطنه، ويسهل عليه ذلك.

وأسباب سهولة ذلك متنوّعة للعارف وقد تمكّن من قلبه حلاوة حبّ الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين. فأىّ حلاوة تبقى فى قلبه، وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حبّ الله.

وسئل السوسىّ عن التوبة. فقال: التوبةُ من كلّ شىءٍ ذمَّه العلمُ إلى ما مَدَحه العلم.

وهذا وصف يعمُّ الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم؛ لأنه لا بقاء للجهل مع العلم، كما لا بقاء للّيل مع طلوع الشمس.

وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام.

وهذا العلم يكوِّن علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخصّ أوصاف التوبة وأعم أوصافها.

وقال أبو الحسن الثورى: التوبة أن تتوب عن كل شىء سوى الله تعالى.

قولهم فى الورع

قال رسول الله ﷺ: «ملاك دينكم الورع».

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف، عن أبى عبد الرحمن السلمى إجازة، قال أخبرنا أبو سعيد الخلال، قال: حدثنى ابن قتيبة، قال حدثنا عمر بن عثمان، قال: حدثنا بقية عن أبى بكر أبى مريم، عن حبيب بن عبيد، عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ توضّأ على نهر، فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله فى النهر، وقال: «يبلغه الله عزّ وجل قومًا ينفعهم».

قال عمر بن الخطاب: لا ينبغى لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذلّ لصاحب دنيا.

قال معروف الكرخى: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم.

نقل عن الحارث بن أسد المحاسبىّ أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عِرقٌ إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق.

سئل الشبلى عن الورع، فقال: الورع أن تتورّع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان الدارانى: الورع أوّل الزهد، كما أن القناعة طرف من الرضا.

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حدّ العلم من غير تأويل.

سئل الخواص عن الورع: فقال: أن لا يتكلّم العبد إلا بالحق غضب أو رضى، وأن يكون اهتمامه بما يُرضى الله تعالى.

أخبرنا أبو زرعة - إجازة - عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال: سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت محمد بن داود الدينورى يقول: سمعت ابن الجلاء يقول:

أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته[١] ورشائه[٢] ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئا.

وقال الخواص: الورع دليل الخوف، والخوف دليل المعرفة، والمعرفة، دليل القربة.

قولهم فى الزهد

قال الجنيد: الزهد: خلوّ الأيدى من الأملاك، والقلوب من التتبع.

وسئل الشبلى عن الزهد، فقال: لا زهد فى الحقيقة؛ لأنه إمَّا أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد، أو يزهد فيما هو له، فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده؟! فليس إلا ظلف[٣] النفس وبذل مواساة: يشير إلى الأقسام التى سبقت بها الأقلام.

وهذا لو اطّرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب، ولكن مقصود الشبلى أن يقلل الزهد فى عين المعتدّ بالزهد لئلا يغترّ به، قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أُوتى زهدًا فى الدنيا، ومنطقًا، فاقربوا منه فإنه يُلقى الحكمة».وقد سمىّ الله عزّ وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيرٌ ﴾[٤] قيل: هم الزاهدون.

وقال سهل بن عبد الله: للعقل ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأوّل كل اسم منه ترك الدنيا.

---

(١) الركوة: الدلو الصغير.

(٢) رشائه: حبله.

(٣) ظلف: ظلف نفسه عن الشيء كفّ عنه.

(٤) آية رقم ٨٠ من سورة القصص.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُم مِنهم أئِمَّةً يَـهْدُونَ بِأَمْرِنَـا لَمَّـا صَـبَرُوا﴾[1] قيـل: عـن الدنيا.

وفى الخبر: «العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فـى الدنيـا، فـإذا دخلـوا فـى الدنيـا فاحذروهم على دينكم».

وجاء فى الأثر: «لا تزال «لا إله إلا الله» تدفع عن العبـاد سـخط الله مـا لم يبـالوا مـا نقص من دنيـاهم؛ فـإذا فعلـوا ذلـك وقـالوا لا إلـه إلا الله. قـال الله تعـالى: كذبتـم لسـتم بصادقين».

وقال سهل: أعمال البرِّ كلها فى موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم.

وقيل: مَن سمى باسم الزهد فى الدنيا فقد سمَّى بألف اسم محمـود؛ ومـن سمَّـى باسـم الرغبة فى الدنيا فقد سمَّى بألف اسم مذموم.

وقال السرىّ: الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا، ويجمع هذا: الحظـوظ المالية، والجاهيَّة، وحبَّ المنزلة عند الناس، وحبَّ المحمدة والثناء.

وسئل الشبلى عن الزهد، فقال: الزهد غفلة؛ لأن الدنيا لا شىء، والزهد فـى لا شـىء غفلة.

وقال بعضهم: لمّا رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم.

وعندى أن الزهدَ فى الزهدِ غيرُ هذا. وإنما الزهد فى الزهد بالخروج مـن الاختيـار فـى الزهد؛ لأن الزاهد اختار الزهد وأراده. وإرادته تستند إلى عمله، وعلمه قـاصر، فـإذا أقيـم فى مقام تَركَ الإرادةَ، وانسلخَ من اختياره، كاشفَه الله تعالى بمراده، فيـترك الدنيـا بمـراد الحقِّ لا بمراد نفسه، فيكون زهده بالله تعالى حينئذٍ.

أو يعلم أنَّ مراد الله منه التلبُّسُ بشىء من الدنيا، فما يدخل بالله فى شـىء مـن الدنيـا لا يُنقص عليه زهدَه فيكون دخوله فى الشىء من الدنيا بالله، وبإذن منه زهدًا فى الزهد.

والزَّاهد فى الزُّهد اسـتوى عنـده وجـود الدنيـا وعدمـها؛ إن تركـها تركـها بـالله، وإن أخذها أخذها بالله، وهذا هو الزهد فى الزهد.

وقد رأينا من العارفين من أقيم فى هذا المقام.

---

(١) آية رقم ٢٤ من سورة السجدة.

وفوق هذا المقام مقام آخر فى الزهد: وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه فى مقام البقاء، فيزهد زهدًا ثالثًا، ويترك الدنيا بعد أن مُكِّن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة. ويكون تركه الدنيا فى هذا المقام باختياره، واختياره من اختيار الحق؛ فقد يختار تركها حينا تأسيًّا بالأنبياء والصالحين، ويرى أن أخذها فى مقام الزهد (فى الزهد) رفقٌ أُدخل عليه لموضع ضعفه عن درك شأو الأقوياء من الأنبياء والصديقين، فيترك الرفق من الحق بالحق للحق.

وقد يتناوله باختياره رفقًا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم: وهذا مقام التصرّف لأقوياء العارفين: زهدوا ثالثًا بالله، كما رغبوا ثانيًا بالله، كما زهدوا أولاً لله.

قولهم فى الصبر

قال سهل: الصبر انتظار الفرج من الله، وهو أفضل الخدمة وأعلاها.

وقال بعضهم: الصبر أن تصبر فى الصبر: أى لا تطالع فيه الفرج، قال الله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١).

وقيل: لكل شىء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

فالصبر: عَرك النفس ، وبالعرك تلين .

والصبر جار فى الصابر مجرى الأنفاس ؛ لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهىّ ومكروه ، ومذموم ظاهرًا وباطنًا ، والعلم يدلّ والصبر يقبل ، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر .

ومن كان العلم سائسَه فى الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه.

والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر. ومصدرهما الغريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما، وبالصبر يتحامل على النفس. وبالعلم

---

(١) آية رقم ١٧٧ من سورة البقرة.

يترقّى الروح، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس، ليستقرّ كل واحد منهما فى مستقره. وفى ذلك صريح العدل، وصحة الاعتدال.

وبانفصال أحدهما عن الآخر - أعنى العلم والصبر - ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح، وبيان ذلك يدقّ.

وناهيك بشرف الصبر قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) كلُّ أجيرٍ أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب.

وقال الله تعالى لنبيه: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ ﴾ (٢) أضاف الصبر إلى نفسه؛ لشرف مكانه وتكمّل النعمة به.

قيل: وقف رجل على الشبلى، فقال: أىّ صبر أشدُّ على الصابرين؟ فقال: الصبر فى الله. فقال: لا فقال: الصبر لله. فقال: لا. فقال: الصبر مع الله. فقال: لا. فغضب الشبلى وقال: ويحك، أىّ شىء هو؟ فقال الرجل: الصبر عن الله. قال: فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تتلف روحه.

وعندى فى معنى الصبر عن الله وجه، ولكونه من أشدّ الصبر على الصابرين وجه، وذلك:

أن الصبر عن الله يكون فى أخصّ مقامات المشاهدة يرُجع العبد عن الله استحياءً وإجلالاً. وتنطبق بصيرته خجلاً وذوبانًا، ويتغيب فى مفاوز استكانته وتخفّيه لإحساسه بعظيم أمر التجلىّ، وهذا من أشدّ الصبر؛ لأنه يود استدامة هذا الحال تأديةً لحق الجلال، والروح تودُّ أن تكتحل بصيرتها باستلماع نور الجمال. وكما أنَّ النفس منازعةٌ لعموم حال الصبر، فالروح فى هذا الصبر منازعة، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك.

وقال أبو الحسن بن سالم: هم ثلاثة: متصبِّر، وصابر وصبّار.

فالمتصبّر: من صبر فى الله، فمرّة يصبر، ومرّة يجزع.

والصابر: من يصبر فى الله، ولله، ولا يجزع. ولكن تُتوقع منه الشكوى. وقد يُمكَن منه الجزع.

وأما الصَّبار: فذاك الذى صبره فى الله ولله وبالله، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغيّر من جهة الوجود والحقيقة، لا من جهة الرسم والخِلقة.

وإشارته فى هذا ظهورُ حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة.

---

(١) آية رقم ١٠ من سورة الزمر.

(٢) آية رقم ١٢٧ من سورة النحل.

وكان الشبلى يتمثَّل بهذين البيتين:

إن صوتَ المحبّ مـن ألـم الشـو ق وخـوف الفـراق يـُورثُ ضُـرًا
صابر الصَّبر فاستغاث بـه الصـبرُ فصـاح المحبُّ للصـبر صـبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله: أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر، وجعل الحظَّ الأعلى للرسول ﷺ حيث جعل صبره بالله لا بنفسه، فقال: ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللهِ ﴾ .

وسئل السريُّ عن الصبر، فتكلَّم فيه، فدبَّ على رجله عقرب فجعل يضربه بإبرته، فقيل له: لِم لا تدفعه؟ فقال: أستحى من الله تعالى أن أتكلَّم فى حال ثم أخالف ما أتكلَّم فيه.

أخبرنا أبو زرعة إجازة - عن أبى بكر بن خلف إجازة، عن أبى عبد الرحمن قال: سمعت محمد بن خالد يقول: سمعت الفرغانى يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان، وأكرم الإيمان بالعقل، وأكرم العقل بالصبر؛ فالإيمان زين المؤمن، والعقل زين الإيمان، والصبر زين العقل.

وأنشد عن إبراهيم الخوَّاص رحمه الله:

صَبَرتُ على بعض الأذى خوفَ كلِّه ودافعتُ عن نفسى لنفسى فَعزَّت
وجرَّعتُها المكروهَ حتى تدرَّبت ولو لم أجرّعْها إذن لا شمأزَّت
ألاَ رُبَ ذل ساق للنفس عزَّةً ويارُبَّ نفس بالتذلّل عزَّت
إذا ما مًددتُ الكفَّ ألتمس الغِنى إلى غير مَن قال اسألونى فشلَّت
سأصبر جَهدى إنَّ فى الصبر عزَّةً وأرضى بدنيايا وإنْ هى قلَّتِ

قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : ما أنعم الله على عبد من نعمةٍ، ثم انتزعها، فعاضه مما انتزعه الصبر، إلا كان ما عاضه خيرًا مما انتزعه منه، وأنشد لسمنون:

تجرعتُ من حاليْه: نُعْمَى وأبؤسًا زمانًا إذا أجرى عزاليه احتسى
فكم غمرةٍ قد جرَّعتنى كؤوسُها فجرَّعتُها من بحر صبرى أكْؤسًا
تدرَّعتُ[1] صبرى والتحفتُ[2] صروفه[3] وقلت لنفسى: الصبرَ أو فاهلكى أسى
خُطوبٌ لو أنَّ الشُّمَّ[4] زاحمن خطبها لساخت ولم تدرك لها الكفُّ ملمسا

---

(١) تدّرعت: لبست الصبرَ وجَعلته كالدرع، تدرع لبس الدرع.
(٢) التحف: تغطى بلحاف.
(٣) صروفه: حوادثه.
(٤) الشم: الجبال.

قولهم فى الفقر

قال ابن الجلاء: الفقر أن لا يكون لك؛ فإذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر.

وقال الكتانى: إذا صحّ الافتقار إلى الله تعالى صحّ الغنى بالله تعالى؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

وقال النورى: نعتُ الفقراء السكونُ عند العدم، والبذل عند الوجود.

وقال غيره: والاضطراب عند الموجود.

وقال الدراج: فتشت كنف أستاذى أريد «مكحلةً» فوجدت فيها قطعة، فتحيرَّتُ..

فلما جاء قلت له: إنى وجدتُ فى كنفك هذه القطعة، قال: قد رأيتُها.. رُدَّها.. ثم قال: خذها واشتر بها شيئًا، فقلت: ما كان أمر هذه القطعة بحقّ معبودك؟ فقال: ما رزقنى الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها، فأردت أن أوصى أن تُشدَّ فى كفنى فأردّها إلى الله.

وقال إبراهيم الخوَّاص: الفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين.

وسئل سهل بن عبد الله عن الفقير الصادق، فقال: لا يَسأل، ولا يردُّ، ولا يَحبس.

وقال أبو على الروزبادى رحمه الله: سألنى الزقّاق فقال: يا أبا علىّ. لِم ترك الفقراء أخْذ البلغة[1] فى وقت الحاجة؟ قال: قلت لأنهم مستغنون بالمعطِى عن العطايا؛ قال: نعم، ولكن وقع لى شىء آخر.

فقلت: هات أفدنى، ما وقع لك؟ قال: لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود؛ إذ لله فَاقَتُهم، ولا تضرّهم الفاقةُ؟ إذ لله وجودهم.

قال بعضهم: الفقر وقوف الحاجة على القلب، ومحوها عمّا سوى الربّ.

وقال السوخى: الفقير الذى لا تغنيه النعم ولا تفقره المحن.

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله، ورسمه عدم الأسباب كلها[2].

---

(١) البُلغة [بضم الباء] ما يتبلغ به من العيش: وما لا يكفى فى العيش ويُكتفى به.

(٢) الرسم: العلامة. ويطلق على ما يقابل الحقيقة .

وقال أبو بكر الطوسىّ: بقيت مدَّة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء، فلم يجبنى أحد بجواب يقنعنى، حتى سألت نصر بن الحمامى، فقال لى: لأنه أوّل منزل من منازل التوحيد، فقنعت بذلك.

وسُئلَ ابنُ الجلاَّء عن الفقر، فسكت حتى صلّى، ثم ذهب، ورجع، ثم قال: إنّى لم أسكت إلا لدرهمٍ كان عندى، فذهبت فأخرجتُه. واستحييت من الله أن أتكلّم فى الفقر وعندى ذلك. ثم جلس وتكلّم.

قال أبو بكر بن طاهر عن حكم الفقير: أن لا يكون له رغبة، فإن كان ولابدَّ لا تجاوز رغبتُه كفايته.

قال فارس: قلت لبعض الفقراء مرّة - وعليه أثر الجوع والضّر -: لِم لا تسأل فيطعموك؟

فقال: إنّى أخاف أن أسألهم، فيمنعونى، فلا يفلحون.

وأنشد لبعضهم:

قالوا غدا عيد ماذا أنت لابسه ... فقلت خلعة ساق عبده الجرعا

فقرٌ وصبرٌ همـا ثوبان تحتهما ... قلب يرى ربَّه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

الدهر لى مأثم إن غبت يا أملى ... والعيد ما دمت لى مرأى ومستمعا

قولهم فى الشكر

قال بعضهم: الشكر هو الغَيبة عن النعمة برؤية المنعم.

وقال يحيى بن معاذ الرازى: لستَ بشاكر مادمت تشكر، وغاية الشكر التحيّر. وذلك أن الشكر نعمةٌ من الله يجب الشكر عليها.

وفى أخبار داود عليه السلام: إلهى، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟

فأوحى الله إليه: إذا عرفتَ هذا فقد شكرتنى.

ومعنى الشكر فى اللغة: هو: الكشف والإظهار، يقال: شكر، وكشر، إذا كشف عن ثغره وأظهره فنشْر النعم، وذكرُها، وتعدادُها باللسان: من الشكر.

وباطن الشكر: أن تستعين بالنعم على الطاعة، ولا تستعين بها على المعصية، فهو شكر النعمة.

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم:

أوْليتَنى نعمًا أبوح بشكرها ... وكفيتنى كلّ الأمور بأسرها

فلأشكرنَّك ما حييتُ، إن أمت ... فلتشكرنَّك أعظمى فى قبرها

قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «من ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وظُلم فغفر، وظلم فاستغفر» قيل: فما باله؟ قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدونَ﴾.

قال الجنيد: فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

وفى الحديث: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله».

وقال بعضهم فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[2]. قال، الظاهرة: العوافى[3] والغنى، والباطنة: البلاوى والفقر. فإن هذه نعم أخروية لما يُستوجب بها من الجزاء.

وحقيقة الشكر: أن يرى جميع القضىِّ له به نِعمًا - غير ما يضرّه فى دينه -، لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئًا إلا وهو نعمة فى حقّه؛ فإمّا عاجلةٌ يعرفها ويفهمها، وإمّا آجلة بما يقضى له من المكاره. فإما أن تكون درجة له، أو تمحيصًا، أو تكفيرا.

فإذا علم أن مولاه أنصحُ له من نفسه، وأعلمُ بمصالحه، وأنَّ كل ما منه نعم، فقد شكر.

قولهم فى الخوف

قال رسول الله ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله»[4].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) آية رقم ٢٠ من سورة لقمان.

(٣) العوافى: جمع عافية. والعافية: الصحة التامة.

(٤) متفق عليه.

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كان داود النبى عليه السلام يعوده الناس، يظنون أنَّ به مرضًا، وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه»[١].

قال أبو عمر الدمشقى: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال بعضهم: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه، ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يُعذّب عليه.

وقيل: الخائف الذى لا يخاف غير الله. قيل: أى لا يخاف لنفسه، إنما يخاف إجلالاً له. والخوف للنفس خوفُ العقوبة.

وقال سهل: الخوف ذكر، والرجاء أنثى، أى منهما تتولَّد حقائق الإيمان. قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ وصَّيْنَا الَّذِينَ أوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإيَّاكُمْ أنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[٢].

قيل: هذه الآية قطب القرآن، لأنَّ مدار الأمر كلِّه على هذا.

وقيل: إن الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين: وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان. فقال تعالى: ﴿هُدى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرهَبُونَ﴾[٣] وقال: ﴿إنَّمَا يخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٤] وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٥].

وقال سهل: كمال الإيمان بالعلم، وكمال العلم بالخوف.

وقال أيضا: العلم كسب الإيمان، والخوف كسب المعرفة.

وقال ذو النون: لا يُسقى المحبُّ كأسَ المحبَّة إلا من بعد أن ينضج الخوفُ قلبهَ.

وقال فضيل بن عياض: إذا قيل لك: نخاف الله اسكت، فإنك إن قلت لا، كفرت، وإن قلت نعم، كذبت. فليس وصفُك وصفَ من يخاف.

---

(١) متفق عليه.

(٢) آية رقم ١٣١ من سورة النساء.

(٣) آية رقم ١٥٤ من سورة الأعراف.

(٤) آية رقم ٢٨ من سورة فاطر.

(٥) آية رقم ٨ سورة البينة.

قولهم فى الرجاء

قال رسول الله ﷺ: يقول الله عزّ وجل: «أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. ثم يقول: وعزّتى وجلالى لا أجعل من آمن بى ساعة من ليل أو نهار كمن لا يؤمن بى»[1].

وقيل: جاء أعرابىّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: من يلى حسابَ الخلق؟ فقال: الله تبارك وتعالى. قال: هو بنفسه؟ قال: نعم، فتبسَّم الأعرابى، فقال النبى ﷺ: «مم ضحكت يا أعرابى»؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح.

وقال شاه الكرمانى: علامة الرجاء حسن الطاعة. وقيل: الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال. وقيل: قرب القلب من ملاطفة الربّ.

قال أبو على الروزبادى: الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطائر وتمّ فى طيرانه.

قال أبو عبد الله بن خفيف: الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو.

قال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

والخوف والرجاء للإيمان كالجناحين، ولا يكون خائفًا إلا وهو راج، ولا راجيًا إلا وهو خائف. لأن موجب الخوف الإيمان، وبالإيمان رجاء، وموجب الرجاء الإيمان، ومن الإيمان خوف.

ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه قال لابنه: خَفِ الله تعالى خوفًا لا تأمن فيه مكره، وارجُه أشدَّ من خوفك.

قال: فكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد؟ قال: أمَا علمتَ أن المؤمن لذو قلبين يخاف بأحدهما، ويرجو بالآخر؟ وهذا لأنهما من حكم الإيمان.

قولهم فى التوكل

قال السرىّ: التوكّل الانخلاع من الحول والقوة.

وقال الجنيد: التوكّل أن تكون لله كما لم تكن، فيكون الله لك كما لم يزل.

وقال سهل: كل المقامات لها وجه وقَفَا، غير التوكّل فإنه وجه بلا قَفا.

---

(١) متفق عليه.

قال بعضهم: يريد: توكلُّ العناية لا توكّل الكناية.

والله تعالى جعل التوكّل مقرونًا بالإيمان فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١] وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٢] وقال لنبيه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾[٣].

وقال ذو النون: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة.

وقال أبو بكر الرقاق: التوكل ردّ العيش إلى يوم واحد وإسقاط همّ غد.

وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكّل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكلّ في أمانيه، ولا يلتفت بسرّه إلى توكّله لحظةً في عمره.

وقال بعضهم: من أراد أن يقوم بحق التوكلّ فليحفر لنفسه قبرًا يدفنها فيه، وينس الدنيا وأهلها؛ لأن حقيقة التوكّل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله.

وقال سهل: أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدى الله كالميِّت بين يدى الغاسل، يقلّبه كيف أراد، ولا يكون له حركة ولا تدبير.

وقال حمدون القصّار: التوكّل هو الاعتصام بالله تعالى.

وقال سهل أيضا: العلم كلُّه بابٌ من التعبّد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل.

وقال: التقوى واليقين مثل كفتى الميزان، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان.

ويقع لى: أن التوكلّ على قدر العلم بالوكيل، فكل من كان أتم معرفة كان أتمَّ توكلا، ومن كمل توكله غاب في رؤية الوكيل عن رؤية توكله.

ثم إنَّ قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل في القسمة، وأن الأقسام نصبت بإزاء المقسوم لهم عدلاً وموازنة؛ فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس، وكل ما أحسَّ بشيءٍ يقدح في توكّله يراه من منبع النفس، فنقصان التوكّل يظهر بظهور النفس، وكماله يثبت بغيبة النفس، وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكّلهم، وإنما شغلهم في تغييب النفس بتقوية مواد القلب، فإذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فَصَحَّ التوكل والعبد غير ناظر إليه، وكلما تحرك من النفس بقية يردُّ على ضميرهم سرَّ قوله تعالى:

---

(١) آية رقم ٢٣ من سورة المائدة.

(٢) آية رقم ١٣ من التغابن.

(٣) آية رقم ٥٨ من سورة الفرقان.

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[١] فيغلب وجود الحق الأعيان والأكوان، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون فى نفسه، ويصير التوكل حينئذ اضطرارًا.

ولا يقدح فى توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح فى توكل الضعفاء فى التوكل من وجود الأسباب والوسائط؛ لأنه يرى الأسباب مواتًا لا حياة لها إلا بالتوكل، وهذا توكل خواص أهل المعرفة.

قولهم فى الرضا

قال الحارث: الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم.

وقال ذو النون: الرضا سرور القلب بمُرِّ القضاء.

وقال سفيان عند رابعة: اللهم ارض عنا. فقالت له: أما تَستحى أن تَطلب رضا من لستَ عنه براضٍ!!

فسألها بعض الحاضرين: متى يكون العبد راضيًا عن الله تعالى؟

فقالت: إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة.

وقال سهل: إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًا»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الهمَّ والحزن فى الشكّ والسخط».

وقال الجنيد: الرضا: هو صحة العلم الواصل إلى القلوب؟ فإذا باشر القلب حقيقة العلم أدّاه إلى الرضا. وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء؟ فإنهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة؟ لأنه فى الجنّة لا يستغنى عن الرضا والمحبة.

وقال ابن عطاء الله: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد؟ لأنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط.

---

(١) آية رقم ٤٢ من سورة العنكبوت.

(٢) آية رقم ٢٩ من سورة الرعد.

(٣) رواه مسلم.

وقال أبو تراب: ليس ينال الرضا من الله من للدنيا فى قلبه مقدار.

وقال السرى: خمس من أخلاق المقرَّبين: الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره، والحبُّ له بالتحببّ إليه، والحياء من الله، والأنس به، والوحشة مما سواه.

وقال الفضيل: الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئًا.

وقال ابن شمعون: الرضا بالحق، والرضا له، والرضا عنه؟ فالرضا به مدبرًا ومختارًا، والرضا عنه قاسمًا ومعطيًا، والرضا له إلهًا وربًا.

سئل أبو سعيد: هل يجوز أن يكون العبد راضيًا ساخطًا؟

قال: نعم، يجوز أن يكون راضيًا عن ربّه، ساخطًا على نفسه وعلى كلّ قاطع يقطعه عن الله.

وقيل للحسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما: إنَّ أبا ذرّ يقول: الفقر أحبّ إلىّ من الغنى، والسقم أحبُّ من الصحة.

قال: رحم الله أبا ذرّ، أما أنا فأقول: من اتّكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختار الله له.

وقال على رضى الله عنه: من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدًا، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله فى كل حال.

وقال يحيى: يرجع الأمر كلّه إلى هذين الأصلين: فعل منه لك، وفعلٌ منك له، فترضى بما عمل، وتخلص فيما تعمل.

وقال بعضهم: الراضى من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها.

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟

قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يُعامل به، يقول: إن أعطيتنى قبلت، وإن منعتنى رضيت، وإن تركتنى عَبَدتُ، وإن دعوتنى أجبت.

وقال الشبلى -- رحمه الله – بين يدى الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر. فقال: صدقت، قال: فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء.

وهذا إنما قاله الجنيد – رحمه الله – تنبيهًا منه على أصل الرضا، وذلك أن الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه، وانشراح القلب من نور اليقين، قال الله تعالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُو عَلَى نُور مِنْ رَبِّهِ﴾[1].

فإذا تمكّن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة، وعاين حُسنَ تدبير الله تعالى، فَيُنْتزع السخط والضجر؟ لأنَّ اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق؟ لأنَّ المحبَّ يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى فى لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه، كما قيل:

وكلُّ ما يفعل المحبوب محبوب

---

(١) آية رقم ٢٢ من سورة الزمر.

obeikandl.com